من
تراب (٥٤٥)
الطريق

ماهية الزمن (*)
(١)

مع أن الوقت هو محور حياتنا، حاضر دائما فى صفحة وعينا، إلاّ أن توصيف ماهيته يبقى دائما هدفاً للبحث: ما هو الوقت أو ما هو الزمان؟ هل هو استمرارية وجود حدث فى الكون؟ هل الوقت صفة مقدارية تنقضى مع انقضاء هذا الحدث مع تكرارها فيه وفى غيره.. وهل مقدارها يقبل التبعيض والتجزئة وهل تقبل هذا التبعيض إلى غير حد؟ وهل هذا يتم فى الكون أو فى فكرالآدمى وتصوره فقط.. وهل اختلاف مقدار هذه الاستمرارية هو المسئول عن «القبل والبعد» و«القديم والجديد» و«الأول والآخر» و«الماضى والحاضر» و«الباقى وغير الباقى» و«الأزلى والأبدى».. هل هذه الاستمرارية هى المسئولة عن علاقة هذه الثنائيات بالوقت والزمان كضدين متقابلين.. وما معنى هذه الاستمرارية النسبية المقدارية؟

أم أن الوقت أو الزمان هو مسافة الحركة المتاحة للكائن فى الكون.. أى مجموع هذه المسافة الفعلية منسوبة إلى مسافات الحركات المتاحة للكائنات الأخرى بافتراض أنها هى الأخرى فعلية؟

فالمسافة الأطول والأبعد يقطعها الأطول زمنا ووقتا، وليس الأبعد زوالاً وفناء. فهذا خلال سريانه لا يقطع وجوده قبل زواله وفنائه إلاّ مسافة من العالم الخارجى.. ضئيلة أو قصيرة، بينما يقطع غيره من الموجودات سيما الطاقات منها برغم قصر استمرارية وجوده إلى الكسر من الثانية أو

(*) المال ٥/ ١٢/ ٢٠١١

أقل ، وهذا يطرح على البشر ، ويستخدمونه فى الحركة وقطع المسافات أداءً ونقلا وانتقالاً ، يطرح عليهم طاقات تقطع المسافات الشاسعة . هل يطيل هذا فى حقيقة زمنهم وهم لا يشعرون فيتجاوز بمراحل زمن القاعد البطىء الزاحف ، وأن المسافة المعنية هى ما يتغير به وعى شعور الآدمى ويتطور تصوره لذاته ومحيطه حينئذ يكون الزمن من خصائص جهاز الآدمى النفسى وعناصر رؤيته لنفسه وإلى المحيط والكون .

هذه وغيرها أسئلة جال عقل الآدمى فيها وما زال يجول دون الوصول إلى نهاية يُطمأن إليها .. لأننا نعيش الزمن دون أن نفهم حقيقته كما نعيش حياتنا ذاتها دون أن نفهم حقيقتها !

ثم إن للزمن عند الآدميين مفاهيم مختلفة مختلطة باختلاف الموضوعات والفئات ولديهم مصطلحات اتفقت عليها الجماعات من قديم وصارت أعرافاً ومقاييس للحساب والمحاسبة بالمواطأة طويلة الأمد رغبةً فى التنظيم والتيسير فى استخلاص النتائج والمعلومات العملية لعلاقات الناس بعضهم ببعض وروابطهم بالمحيط الذى يعيشون فيه ، ومن ذلك ما يُعرف بالسنة أو الحول وأقسام السنة وشهورها وأسابيعها وأيامها وساعاتها وأقسامها وبدايات كل تقويم .. وهم يستعملون هذه فى حساب الأعمار والتواريخ والمواليد والوفيات والزيجات والأرباح والخسائر وتذكر الماضى والحاضر وتخيل المستقبل وتوقع مواقع ما يقابلهم من الظواهر الطبيعية والبيولوجية والفسيولوجية والنفسية .

وقد ساد تحديد الأزمنة جميع ما يقع تحت حواسنا أو يقع وتتداوله عقولنا مما نتصور أنه وقع أو يقع خارجنا سواء من جانبنا أو مما يهمنا حقيقةً أو

تصوراً .. علماً بأن ما يدور بداخل الآدمى لا يرتبط بزمن .. حكماً أو علماً أو تصوراً أو فكراً من جهة تكوينه وليس من جهة تذكره .

ويبدو أن شدة ارتباطنا بما نسميه زمنا لكل حدث ترجع إلى حاجاتنا التى لا تنقطع قط إلى التعامل الدائب مع المحيط الذى ليس منه مفر .. فلا بد طوال أيامنا على الأرض من التفات وعينا إلى حدوث شيءٍ قبل شيءٍ أو بعده أو وصله أو فصله بشيء حصل أو مضى أو فى طريقه إلى الحصول أو نرغب أو نخاف حصوله .

ونحن لا نكف عن استعمال نظام ما .. علمى مشترك .. على قدر من البساطة وإمكان التنفيذ .. به يمكن للآدمى حسب ظروفه وأحواله أن يواجه احتمالات حياته .. وهى غالباً ما تتراوح وتتأرجح عملاً بين الراجح والمحتمل والنادر والمستحيل فى نظر الآدمى العادى الذى تختلف معايير قدراته عن العباقرة والأفذاذ .

ويبدو أن الآدمى قد استخلص بوعيه وجود الزمن من وجود محيطه حتى لا يضيع حساب ما يصادفه .. وذلك ثقة منه فى أن محيطه ثابت أو على درجة من الثبات .. وبواسطة هذا القياس إن جاز التعبير أمكن للآدمى أن يسند إليه إلى محيطه ترتيب وتعاقب أحداث حياته ووقائعها التى تتوالى توالى الأنفاس .. وليمكن للآدمى أن يرجع باستعادة وتذكر هذا الترتيب والتعاقب إلى الانتفاع والاستفادة بحصيلة ما يذكره فى مواجهة ما يقابله .. وقد يسَّر هذا الرجوع باصطلاح الشارات والرموز والألفاظ والعلامات ثم موالاتها فى تطورها بالتصحيح والتنقيح والتجربة ، حتى صارت إلى ما هى عليه الآن ، فى الجماعات المتقدمة من الدقة والانضباط .. واستطاع الآدمى

أن يطير وأن يغوص ، وأن ينطلق كالسهم وأن يتجاوز أجواء الأرض إلى الفضاء الواسع وأن يرى أحوال الأجرام والكواكب السيارة رؤية العين .. وقد كان العقل من أشد ملكات الإنسان التى هيأت له باستخدامه تجريبيا وعمليا الإمعان فى حساب الظواهر الطبيعية ولكن دون أن يعرف حقيقة ما يسميه بالزمن أو الوقت !!

من تراب الطريق (٥٤٦)

ماهية الزمن (*) (٢)

وتقدم الإنسان فى الفهم والمعرفة ، هو على أهميته الهائلة نسبى وجزئى كأى تقدم سبقه وربما كأى تقدم يتلوه أو يلحقه .. فهو نسبى من جهة أنه أزال أخطاء وجهالات وعقبات ولما يرفع مجاهل مازالت أعمق وأكثر .. وهو جزئى لأنه لم يغير تغييراً حاسماً وجدان الآدمى وأعماقه وإن كان قد غزا الكثير من عاداته السابقة وسلوكه القديم ومازج أفكاره وتصوره لدوره فى هذه الدنيا .

فما زالت أغلبية البشر هنا وهناك ، فى البلاد المتقدمة أو غير المتقدمة ، تربط نفسها بالزمن فى جدها وهزلها وتعبها وراحتها وعملها وفراغها .. ولا تكاد تفارق أو تستغنى عن وجود الساعة فى الجيب أو فى اليد أو على الحائط ، وفى الميادين والشوارع والمحلات العامة ، وفى البث الإذاعى والتليفزيونى والإلكترونى ، وفى المعمل والمصنع والمتجر والمرصد والمعهد .. إلاَّ أن هذه الساعة أياً كانت هى مجرد أداة أو آلة لا تختار أو تحدد مساعى البشر ، ولا تشعر بشىء مما يدور فى خواطرهم .. فالبشر هم الذين يتقيدون أو لا يتقيدون بما تشير إليه عقارب الساعة من اصطلاح .. وهم الذين ينظرون فيها ويرتبون على ذلك ما يشاءون من أغراض ، وما يتحرك داخلهم من عواطف . فالساعة كآلة لا تحرك فى عقل الآدمى أو فى نفسه أى رغبة فى

(*) المال ٦/ ١٢/ ٢٠١١

معرفة ماهية الزمن كوجود يتميز عما يضاف إليه من المضافات .. فعندما يحملق الإنسان فى الساعة ، لا يتجاوز معرفة وقت الشىء الذى فى خاطره كشأنه فيما يتعلق بأى أداة من أدوات أو آلات الأغراض اليومية أو المهنية أو الحرفية أو الترفيهية .. لأن الناس لا يصنعون الساعات إلاّ لخدمة أغراض الناس .. وهذه كلما اتسعت راجت معها صناعة أو تجارة الساعات لدى البشر .

ويبدو أن البشر قديما وحديثا لا يربطون بين حقيقة الزمن وبين الإنجاز ، ويرون أن الزمن يطول بتأخير الإنجاز ويختصر بالإسراع فيه .. ومن هذه الناحية يشبه الزمن عندهم التصور الذاتى .. يظل الساكن على سكونه فى حال السكون وزمنه إلى أن يحركه متحرك ، ويظل المتحرك فى حال الحركة وزمنها إلى أن يوقفه عن حركته موقف . فالزمن ظرفية فقط للأحداث الدنيوية ، لكن أحداً لا يدرى هل هذه الظرفية خارجية كظرفية النور والظلمة ، والريف والحضر ، والصيف والشتاء أم هى ظرفية داخلية ضمن تكوين الحدثْ ، كعدد وترتيب ذرات الجزىء ، وفقد واستعادة إلكترون الذرة أو تفرق نواتها لدى تحطيمها . وهذا ربما يجعل زمن البشر «فضلة» و «إضافة » هامشية قد تلزم الآدمى لفهم محيطه ، لكنها لا تلزم لوجود الكون ذاته وما اشتمل عليه .

وحياة الأحياء استمرارية ؛ ذات بداية ونهاية فى محيط متقلب ، يجىء للحى بالنافع له والضار من الأحداث فى تداول يحتوى على تعاقب شبه منتظم المسافات بين كل حدث ونظيره . وقد عرف الآدمى ذلك من قديم ، فحسب أوان الأحداث والأشياء وحينها ، وراقب أواناً للإبذار وللإزهار

وللإثمار والحصاد ، وأواناً للحر والركود ، وأواناً للنسائم والريح المواتية ، وأواناً للبرد والثلج والنوات والعواصف والأعاصير والزلازل والبراكين فى الأمكنة المعرضة لها .. وأمَّن نفسه على قدر طاقته لمواجهة كل أوان بحسب ما يلائمه .. ووَصْفُ ذلك بأنه وقت أو موسم أو زمان يعنى فقط أثر ذلك على ذاته وذويه وأحواله ، وما يتطلبه من تصرف من واقع الخبرات والمشاهدات السابقة فى المحيط .

وحين عُرِفَ أن الآدمى يدين للضوء فى رؤيته لنفسه ومحيطه ، وعُرِفَ أن الضوء أعلى الطاقات المعروفة سرعة وأنه كما يشاهد أمواجاً فى مجاله قد يشاهد جسماً فى جسم ، فإن الفيزياء الحديثة قد جمعت بين الزمان والمكان الفيزيائيين فى وحدةٍ واحدة لايعترف بها إلاَّ أهل العلم الوضعى ، ولا معنى لها عند الإنسان العادى الذى مازال يتداول كلمة الزمن أو الزمان كما كان يتداولها آباؤه وأجداده بغموضها وسيولتها وانطباقها على كل شىء وكل حدث للحىّ ، وغير الحىّ وعلى الكون نفسه بدايةً ونهاية .

وربما كانت سيولة وغموض فكرة الزمن والوقت فى وعى الآدمى من أنها جزء من وعيه نفسه وإحساسه بالصيرورة والتغير الدائبين ، ومن استناد ذلك الوعى والإحساس لدى الآدمى إلى ثبات الأرض فى نظره ودوام ثباتها ، ومن اعتياده على قياس أعمار الأحياء والأحداث على أساس ذلك الثبات برد الأعمار والمواقيت إلى بدايات أو تقويم بدأت كلها على الأرض ومن حياة الآدمى عليها .

وبرغم فقد الأرض ثباتها وأهميتها الكونية فى نظر العلوم الوضعية والحديثة ، خاصة فى نظر علوم الفيزياء والفلك فإن الأرض لم تفقد أهميتها

القديمة فى عين الإنسان العادى الحالى الذى مازال يعى ويمس الزمن ومرور الوقت ويحسبهما كما كان يفعل آباؤه وأجداده .. مستعيناً بآلات حساب الزمن وبيان الوقت . ومازال معظم الآدميين يرجون مخلصين بطريقة أو بأخرى الحياة الآخرة بعد الموت ، ويرجون فيها حياة باقية ثابتة غير محدودة ، لا تقبل التغير والتحول ، ولا تقاس بزمن أو وقت فى أحداثها وأجزائها جميعاً ، ولا تخضع إلاَّ لمشيئة واختيار كلّ صالح من الراجين الموعودين بها .